إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة –العدد الثانی عشر –شتاء ۱۳۹۲ش/كانون الأول ۲۰۱۳م
صص ۱۵۱ ـ ۱۳۵

دراسة لنشأة إحدى حكايات "مرزبان‌نامه" الاجتماعية؛ "اختيار الأخ" أنموذجا

رودابه شاه‌حسینی*

الملخص

إنَّ حكاية "هنبوی مع الضحاک" التی وردت فی كتاب "مرزبان‌نامه" تحكی قصة امرأة بهذا الاسم كانت تعيش فی عصر الضحاک. حيث تقع القرعة باسم ابنها وزوجها وأخيها فی يوم واحد ليصبحوا طعاماً للحيتين اللتين كانتا على كتفی الضحاک بعد أن وقعوا فی أسر حكومة الضحاک وبذلک حكم عليهم بالموت. وعندما تبالغ هنبوی فی البكاء والعويل يسمح لها الضحاک باختيار واحد من الثلاثة ليظل على قيد الحياة وتختار هنبوی أخاها من بين الثلاثة. إنَّ اختيار هنبوی لأخيها يثير العجب ولكنَّ لا شكّ فی أنَّ للأمر جذوراً تختلف عن النظام الاجتماعی وعن مفهوم القرابة المعاصرين ويجب أن نبحث عن تلک الجذور فی المجتمعات البدائية التی كانت مبنية على أساس جنوسی يقرّ النظام الأمومی. تحاول هذه العجالة دراسة هذا المفهوم فی تلک الحكاية.

المفردات الدليلية: هنبوی، اختيار الأخ، النظام الأمومی، الانتساب إلى الأم.

---

*. أستاذة مساعدة بجامعة بيام نور. Roosha11@Yahoo.com
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. عدنان أشكوری
تاريخ الوصول: ۱۳۹۲/۲/۱۲ تاريخ القبول: ۱۳۹۲/۹/۱۸

المقدمة

«يعتبر كتاب مرزبان‌نامه من تأليف مرزبان بن رستم بن شروين، كتاباً مليئاً بالنصائح والأمثال والحكايات على لسان الحيوانات وقد تم تأليفه على غرار كتاب كليلة ودمنة حيث وضع فى أساسه باللهجة الطبرية القديمة فى مازندران شمالى إيران وتم نقله بعد مضى قرنين تقريباً إلى اللغة الفارسية على يد شخصين هما سعدالدين وراوينى ومحمد بن غازى الملطيوى، والطريف فى الأمر أنَّ أحداً منهما لم يكن مطلعاً على عمل صاحبه وقد أضافا إليه الأبيات الشعرية والأمثال العربية والآيات القرآنية. إنَّ الكتاب الذى وصل إلينا هو كتاب مرزبان‌نامه الذى قام بترجمته وتهذيبه سعدالدين وراوينى بين الأعوام (٦١٧-٦٢٢ق) حيث ظهرت الطبعة الأولى منه إلى النور عام (١٩٠٩م) بتصحيح ومقدمة محمد قزوينى فى ليدن. وقد صدرت بعد ذلك عدة طبعات منه فى طهران.» (مصاحب، ٢٠٠٣م: ٢٧٤٢/٣) لقد وردت حكاية هنبوى مع الضحاك فى الباب الأول وترى الباحثة أنَّ الجذور الاجتماعية التى تنتمى إليها هذه الحكاية تختلف كلّ الاختلاف عما هى عليه اليوم.

إنَّ هناك عوامل عديدة تلعب الدور فى خلق كل حضارة ونظام اجتماعى وبالتالى الخصوصيات الثقافية المميزة لذلك النظام ومن هذه العوامل، العوامل الجغرافية والجيولوجيه والبيئية والاقتصادية وغير ذلك من العوامل. وكلَّما تغيرت عوامل خلق تلك الحضارة فإنَّ البنى التحتية لذلك النظام الاجتماعى وخصوصياته الثقافية تتعرض للتغيير ويزول الكثير من العادات والمعتقدات من ذاكرة البشر تدريجياً غير أنَّ آثارها تبقى فى العادات والتقاليد التى يلتزم بها الناس ويتم نقل الأمثال والأساطير المرتبطة بها بشكل شفهى بين أجيال تلك الأمة دون أن يدرك الملتزمون بها أو من يسمعونها مغزى هذه القصص. إنَّ الأوامر والنواهى التى طواها النسيان ستظل مع الانسان فى رحلة حياته غير أنَّها تظهر هذه المرة فى قالب الرموز. إنَّ معرفة الأنظمة الاجتماعية وإعادة النظر فيها قد تستطيع أن تساعدنا على فك رموزها إلى حدّ كبير بل إلى إظهار هذه الرموز.

الفرضية:

إنَّ اختيار هنبوى لأخيها يدلّ على ترسبات النظام الأمومى و الانتساب إلى الأم.

سوابق البحث:

هناک کتب مهمة فى مجال معرفة المجتمعات البدائية ونظامها الطوطمى ومن جملتها يمكن الإشـارة إلى "تاريخ الأديان" لمؤلفه "جان ناوس" كما أنَّ هناک كتاباً آخر تحت العنوان نفسـه للمؤلف "هاشـم رضى". كما ألفّ جيمز جورج فريـز كتاباً تحت عنوان الطوطمية والـزواج مع غير الأقارب وكذلک هناک كتاب علم نفس الشـعوب لمؤلفه فونت، ولاننسـى أن نذكر كتاب الطوطم والطابو لزيغموندفرويد. غير أنَّ الباحثة لم تعثر علـى كتاب أو مقال فيما يتعلق بموضـوع حكاية هنبوى فى مرزبان‌نامه و معرفة البنى التحتية الاجتماعية المرتبطة بها.

"هنبوى وقضية الاختيار"

لقد أثارت حكاية هنبوى الواردة فى كتاب مرزبان‌نامه الكثير من المشاعر المتناقضة لدىّ كامرأة حيث إنَّنى لم أتمكن من فهم السـبب الذى دفعها لمثل هذا التصرف الغريب. وكان الظن الغالب لدىّ أنَّ بنية القصة غير مستمدة من الواقع فهل هناک امرأة تستطيع أن تختـار أخاها عندما تخيّر بينه وبين زوجها؟ ثم أين غريزة الأمومة عندما تختار الأم أخاها وتهمل ابنها؟ لا شـکّ فى أنَّ الأم تفكر فى مثل هذه الحالات بابنها دون غيره ولا تفكّر بتاتاً بأنَّها تستطيع إنجاب أولاد آخرين فى المستقبل. إنَّ حبّ الأولاد ضارب بجذوره فى أعماق وجود الأم حيث لا تسـتطيع إطلاقاً فى أن تفكّر بهذه الطريقة. هل إنَّ الأدلة التى تسـتند إليها هذه المرأة فى تفضيل أخيها على زوجها وابنها تنسـجم مع روح المـرأة وعواطفها؟ فهل يمكن للمرأة الأم فى هذا الموقف أن تفكّر فى الاسـتدلال واللجوء إلى المنطق؟

إنَّ هنبوى امرأة كانت تعيش فى عصر الضحاک وتقع القرعة فى يوم من الأيام على أخيهـا وزوجها وابنها للموت لإطعام الحيتين الموجودتـين على كتفى الضحاک. تبالغ هنبوى فى البكاء والصراخ متسـائلة ما الذى يجعل ثلاثة أشـخاص من أسرتها ضحية

فی یوم واحد بهذا الشکل الفظیع ویرضی الضحاک أخیراً بأن تختار واحداً من هؤلاء الثلاثة لکی یبقی علی قید الحیاة فتختار هنبوی أخاها دون زوجها وابنها.

أمّا القصة کما وردت فی کتاب مرزبان‌نامه فهی کالتالی:

«... فـی عهد الضحاک الذی نبتت علی کتفیه حیّتـان حیث کان فی کل یوم یذبح شاب یافع لإطعام الحیتین من دماغه، کانت هناک امرأة تدعی هنبوی ومن سوء القضاء وقعـت القرعة فی یوم من الأیـام علی ابنها وزوجها وأخیها. حیث ألقی القبض علیهم جمیعـاً لیمارس ذلک الظلم المعروف علیهم ذهبت المرأة إلی قصر الضحاک وهی تتظلم باکیة متوسـلة وکانت تنوح بألم متسـائلة إذا کان فی کل یوم یتم اختیار شخص واحد من کل بیت فلماذا ألقی القبض علی ثلاثة من الرجال من بیتی. لقد بلغ صراخها ایوان الضحاک حیث سمعها فسـأل عن حالها. فأخـبر بالأمر فأمر أن تخیّر بین هؤلاء الثلاثة حتی یطلق سـراح من تختاره هی. ثم أخذوا هنبوی إلی بوابة السجن فوقع نظرها علی زوجهـا فتحرک الحب فـی وجودها کما أنَّها تذکرت زواجها فـأرادت اختیاره فوقع بصرهـا علی ابنها فکادت أن تخرج کبدها من أحشـائها لتلقـی بوجودها أمام مخالب نسور البلاء لکی تنقذ ابنها ولکن بصرها وقع علی أخیها أسیراً فی القید نفسه فطأطأت برأسـها وجرت الدماء من عیونها بدل الدموع ففکّرت فی نفسـها فقالت إنَّنی تورطت الآن فی ورطة الحیرة ولا أدری من أختاره من الثلاثة أأختار نور العین أو قرار القلب أو زینة الحیاة؟ وکیف لی أن أهدّئ هذا القلب المضطرب ولکنَّ ماذا أفعل إذ لا أستطیع أن أقطع صلة الأخوة ولا یرضی به قلبی. أنّی للإنسـان أن یختار بدیلاً لمن لا بدیل له. إنَّنی امرأة شـابة بإمکانی أن أتزوج مرة أخری وقد أسـتطیع أن أنجب منه ولداً أطفئ به لهیب الفراق بقلیل من ماء الوصال. وأداوی سـم فقدانه بترياق بقاء المولود الجدید. ولکـنَّ لا یمکننی إطلاقاً أن أرزق بأخ جدید من والدین أدرکهما الموت حتی أتمکن من أن أحبّـه وأعیش فی کنف حبّه. فاضطرت فی نهایة المطاف أن تصرف النظر عن الابن والـزوج فأخذت بید أخیها وخرجت معه من السـجن وعندما بلغ الخبر الضحاک أمر بإطلاق سراح الابن والزوج ووهبهما لها.» (وراوینی، ۲۰۰۶م: ۵۲-۵۱)

إنَّ قرار هنبـوی القاضی باختیار الأخ یبدو أمراً غریباً کما أنَّ الأدلة التی تذکرها

لتبرير موقفها تبدو منطقية حسب المنطق الرياضى ولكنَّها غير مفهومة من المنطلق العاطفى بل إنَّها تبدو قراراً آلياً غير إنسانى.

غير أنَّ قليلاً من التأمل يدفعنا إلى الاعتقاد بأنَّ هذه النظرة وليدة فهم الإنسان المعاصر عن المجتمع وعن مؤسسة الأسرة بالمعنى الذى يفهمه اليوم و لكنَّ حكاية هنبوى لا تحكى قصة الحياة المعاصرة إطلاقاً.

عندما نواجه بعض التعقيد فى القصة وعندما نرى أنَّ هناك مشكلة فى فهم تصرفات هنبوى فإنَّ مردّ ذلک جميعاً إلى عدم اطلاعنا على هندسة البنية الاجتماعية ومؤسسة الأسرة فى الأزمان الغابرة. إنَّ منطق هنبوى منطق الإنسان البدائى لا الإنسان المعاصر إنَّه منطق أناس كانوا يعيشون على أساس مجتمع خاضع لسلطة الأم والانتساب إليها فى نظام الزواج من خارج الأسرة. فبالنظر إلى اختلاف نسبة أهمية القرابة فى مؤسسة كهذه فإنَّ من الطبيعى أن يكون اختيارها غير متناسب مع اختيار الإنسان فى هذا العصر.

النظام الأمومى أو نظام الانتساب إلى الأم والزواج خارج الأسرة

إنَّ النظام الأمومى يعنى أنَّ تحديد الأصل والنسب يتم من خلال الأم كما أنَّ موضوع الزواج خارج الأسرة يعنى أنَّ اختيار الزوج يتم من جماعة غير الجماعة التى تنتمى إليها المرأة. «إنَّ النظام الاجتماعى الذى يتم فيه الانتساب وتحديد الأصل عبر الأم ويتمّ نقل الملكية الشخصية بواسطتها أيضاً يطلق عليه النظام الأمومى أو نظام الانتساب إلى الأم بينما يطلق على النظام الذى يتم فيه الانتساب وتحديد الأصل ونقل الملكية عبر الأب النظام الآبوى أو نظام الانتساب إلى الأب.» (فريزر، ٢٠٠٨م: ٤٣٨) إنَّ من ميزات هذه المجتمعات «أنَّ الأب لا يرتبط إلى أولاده فى النسب وهم ينتسبون إلى عائلة الأم وقبيلتها وإنَّ ما يكسبه الأب من الأموال ينتقل إلى عائلته من الأم فهو لا يعيش فى بيت زوجته ولا يأكل فيه شيئاً ... إنَّ هؤلاء الناس "فى بعض القبائل" ينقسمون إلى عائلات وقبائل تختار الأزواج من خارجها وينتسب الفرد فيها إلى الأم ففى هذه الأنظمة تجرى العادة على أن لا يرث أولاد الرجل منه شيئاً إذ يرث منه أيضاً أبناء الأخت والخالة.» (المصدر نفسه: ٤٣٨)

إنَّ النظام الأمومى حصيلة الفترة البدائية للمجتمعات البشرية وهو يعود إلى الفترة التـى كان الناس البدائيون فيها غير مطلعين على دور الرجل فى إنجاب الطفل وكانوا ينسبون الحمل فى المرأة إلى حلول أرواح الأجداد فى وجودها أو ما شابه ذلک. «لذا فإنَّ أبسـط أشكال الأسـرة كان عبارة عن المرأة التى تعيش داخل قبيلتها مع أولادها وأمّهـا وأخيها إنَّ هذا الشـكل الذى عرفت به الأسـرة كان نتيجـة طبيعية للعلاقات الحيوانية القائمة بين المرأة وأولادها وجهلها لأهمية دور الرجل فى عملية التناسـل.» (دوراسـت ٢٠١٢م: ٤١/١) «وحتـى بعد أن عرف الناس أهمية دور الرجل الجنسـى فى عملية التكاثر والتناسـل فإنَّ العلاقات الجنسـية كانت تعانى من فوضى عارمة لا تحكمهـا قواعد بحيث لم يكن ممكناً انتسـاب المولود إلى رجل معين لذلک فإنَّ المرأة لم تكن تبـذل جهداً كبيراً فى المجتمعات البدائية لمعرفة والد المولود الذى كانت تلده إلّا فى حالات نادرة.» (المصدر نفسـه: ٤٠/١) إنَّ الأمر الملفت للنظر هو أنَّ المرأة أو الأم لم تكن هى المسـيطرة أو الرئيسة على الأسرة أو المجتمع. «إنَّ النظام الأمومى لا يعنى أنَّ الأم هـى الملک أو الحاكم. بل على العكس من ذلک فإنَّ الاعتقاد بالنظام الأمومى كان أكثـر رواجاً بين القبائل البدائية الوحشـية ففى مثل هذه المجتمعات لم تكن المرأة مسـيطرة علـى الرجل إطلاقاً بل كانت بمثابة خادمـة أو عاملة عند الرجل وكانت فى منزلتهـا الاجتماعية أكثر مـن العبيد قليلاً وفى واقع الأمر فإنَّ هـذا النظام كان بعيداً كل البعـد عن تفضيل المـرأة اجتماعياً بحيث يمكن أن نقول بأنَّ هـذا النظام هو نتيجة إذلال المـرأة المبالغ فيـه فهو وليد مجتمع كانت تعانى فيه علاقات الرجل والمرأة فوضى و لاتحكمهـا قاعدة واضحة لذا فإنَّ إمكانية تحديد والد للأطفال لم تكن متاحة أصلاً.» (فريزر، ٢٠٠٨م: ٤٤٠)

«إنَّ أهميـة المرأة فى مثل هـذه المجتمعات كانت تأتى من كـون المرأة أمّا لتحديد موضوع القرابة والأصل والنسـب، ويجب ألّا يتمّ الخلط بين "حق الأمومة" وبين سلطة الأم ونظـام حكـم الأم. وحتى عندمـا كان الإرث ينتقل عبر الأم فـإنَّ المرأة لم تكن صاحبة السـلطة المطلقة فى أموالها بل إنَّ دورها كان ينحصر فى تسـهيل عملية تحديد العلاقـات الأسـرية. فلولا ذلک لكانت أمارات العلاقة الأسـرية تزول نهائياً بسـبب

إهمال الناس فى تحديد علاقاتهم الجنسية.» (دورانت، ٢٠١٢م: ٤١/١). لقد كان رئيس الأسرة أو الحاكم على المجتمع فى مثل هذا المجتمع هو شقيق الزوجة أو خال الأطفال فهو كان يتمتع بجميع الحقوق التى يتمتع بها الأب فى أسـرة خاضعة لسـلطة الأب، لذا فإنَّه كان يعتبر أهمّ شخص فى الأسرة ففى المجتمعات ذات النظام الأمومى كان «الحق الاجتماعى والسـيطرة والسيادة فى الغالب للخال أو أحد أقرباء المرأة وإذا انظرنا إلى هذه الأسـر من وجهة نظر عامـة فإنَّ الزوج يعتبر فرداً أجنبيـاً ويتمتع الخال أو أحد أقربـاء المرأة بجميع الحقـوق والامتيازات التى يتمتع بهـا الأب فى الأنظمة الخاضعة لسلطة الرجل. فالأب لا يتمتع بأىّ حق إزاء الأم أو بمفهوم أوسع فإنَّ الزوج لم يكن له أى حق فى زوجته.» (رضى، ١٩٦٥م: ٥٤/٤). إنَّ أخا الزوجة يعتبر ولياً لأولاد المرأة حتـى ليتخيل المرء أنَّ أولاد الأخـت أولاده فى الواقع. «لقد كانت علاقة الخال بأولاد أخته بمثابة علاقة الأب بأولاده غير أنَّها كانت ذات طابع رسمى وعلاقة جافة باردة ولم يكن للعطف والحنان أىّ مكان فى هذه العلاقات. فعندما كان يبلغ الطفل سن التدريب كان الخـال يتولى أمره ويراقب جميع أعماله. لقـد كانت التربية والتعليم والتدريب من واجبـات الخال وكان ينفذها بكل دقة وتشـديد ففى بدايـة التدريب كان العمل مبنياً على تدريب الولد على مبادئ المراسـم والإجراءات الرسميـة المرتبطة بعلاقات الفرد مـع أقربائه ... وكان ذلک فى نهاية المطاف أهمّ المـواد التعليمية لأىّ صبىّ.» (المصدر نفسه: ٥٥/٤)

لذا فإنَّنا نلاحظ بأنَّ وجود الأخ كرئيس للأسرة لم يكن ذا أهمية للأخت فحسب بل كان ضروريـاً لرعاية الأطفال ضـرورة حيوية. فهو بالإضافة إلى دوره كأخ كان يلعب دوراً أساسياً فى تربية الأطفال.

يعتقد فرويد: «أنَّ الزواج الجماعى كان أمراً اعتيادياً قبل إقرار الزواج مع شخص واحـد وقد ترک ذلک بصماته على اللغـة والتقاليد والعادات.» (فرويد، ١٩٧٣م: ١٤) ويلاحظ المرء أنَّ الأهمية التى كان يحظى بها الخال كرئيس للأسرة ذات النظام الأمومى قد تركت آثاراً فى اللغة الفارسـية وآدابها. فمن ذلک حضور شـقيق تهمينه فى قصة رسـتم وسـهراب وكذلک قصة هنبوى السـابقة الذكر كما أنَّ هناک مثلاً سائراً يقول

"الابن الحلال يشبه الخال" ويبدو أنَّ ذلک يأتی من دور الخال فی الأسرة المبنية على النظام الأمومی ودوره الفاعل فی تربية أبناء الأخت ويبدو كذلک أنَّ مصدر مثل هذه الأمثال هو نظام الأسرة فی العهود البدائية السحيقة.

بعد تبيين بنية المجتمع ذی النظام الأمومی الذی كان الأخ والخال فيه يتمتعان بالدور الرئيس فی الأسرة فإنَّ المنطق الذی دفع هنبوی إلى ذلک الاختيار يبدو واضحاً فهی تختار من يلعب الدور الأساس فی الأسرة غير أنَّ اختياره هذا مازال مخالفا للعاطفة الإنسانية خاصة وإنَّها تظهر ميلاً عاطفياً مبالغاً فيه قائلة «... ولكنَّ ماذا أفعل إذ لا أستطيع أن أقطع صلة الأخوة ولا يرضی به قلبی» (وراوينی، ٢٠٠٦م: ٥٢) إذ يبدو أنَّ تدبيرها فی اختيار الأخ يتم بتوجيه من عاطفتها. فالسؤال الملح الذی يطرح نفسه هنا هو إذا كانت هنبوی قد تخلت عن زوجها فكيف استطاعت أن تتخلى عن عاطفة الأمومة أيضاً؟!

الزواج من غير الحب

يبدو أنَّ الزواج من خارج نظام الأسرة فی الأسر ذات النظام الأمومی لم يكن منسجماً مع الحب ولم تكن علاقة الحب بين الرجل والمرأة تلعب أیّ دور فی هذا الزواج «إنَّ أساس الزواج البدائی لم يكن مبنياً على حب سابق أو علاقات غرامية بل كان للزواج واختيار الزوج بعد اقتصادی يسعى إلى النفع والاستفادة.» (رضی، ١٩٦٥م: ٥٦/٤)

«إنَّ المتتبع لا يجد أیّ أثر للحب الرومانسی فی جميع حالات الزواج فی المجتمعات البدائية ... إنَّ اختيار الأقوام البدائية للزوجة كان يتم دون أیّ حماس وكأنَّ ذلک كان يساوی عندهم قطف سنبلة قمح ... إنَّ الحب الذی تظهر فيه الحبيبة فی قمة الفضائل والذی ينجم منه الحب الرومانسی ليس إلّا ثمرة للمدينة المتطورة التی يری فيها الإنسان موانع كثيرة أمام إرضاء شهواته الإنسانية وهذه الموانع هی القوانين الأخلاقية كما أنَّ كثرة المال تدفع بعض الرجال والنساء إلى حب الكماليات ومنها التدقيق فی قضايا الحب الرومانسی. لقد كانت الأمم البدائية أفقر من أن تتمكن من إدراک الحب لذا فإنَّنا

قلّما نجد فى أغانيها الأشعار الغرامية. فعندما أراد المبشرون المسيحيون ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة "الغانكين" لم يجدوا فى لغتها كلمة تعادل "الحب" ... وبصورة عامة ينظر الإنسان البدائى إلى موضوع الزواج من منطلق فلسفى خاص لا تختلف فيه نظرته من الجانب الميتافيزيتـــى والدينى عن نظرة الحيوان العادى إلى هذا الموضوع. فهو فى رأيه أمر لا يحتاج إلى التفكير بل يشـــبه الأمر لديه عملية أكل الطعام فهو لا يســـير فى عملـــه هـــذا وراء تخيلاته ولا يبحث عن المرأة المثالية كمـــا لا يضفى على الزواج بعداً مقدســـاً كما لا يفكر فى الإعداد لمراســـم الزواج فالأمر فى حقيقته لا يعدو أن يكون عملية تجارية مربحة ... لم يكن الرجل البدائى لينظر إلى الزواج كوسيلة لتنظيم العلاقات الجنســـية لديه بـــل كان الزواج مبنياً على التعاون الاقتصـــادى. لذا فإنَّ ما كان يتوقعه الرجل من المرأة لم يكن جمالها وظرفها بل كان المطلوب منها النفع والقدرة على العمل وكانت المرأة تقبل هذا الأمر الطبيعى بكل رغبة.» (دورانت، ٢٠١٢م:٥٥/١) «إذا كان الشـــعور بالجمال أمراً غير واضح بين الأمم البدائية فإنَّ مردّه إلى أنَّ الإنسان البدائى لم يكن ليجد الفرصة الكافية للتحليق فى أجواء الخيال من اللحظة التى كان يشعر فيها بالحاجة الجنسية وإلى الزمن الذى كان يتمكن فيه من قضاء هذه الحاجة ولم يكن هذا الزمـــن طويلاً ليضيف هو عليه من خياله شـــيئاً ويعطيه أبعـــاداً جمالية. قلّما كان يحدث عند الإنســـان البدائى أن يختار الرجل امرأة لما نســـميه اليوم الجمال فهو كان يفكر فى الخدمات التى كان بوســـع المرأة أن تســـديها له فهو لم يكن ليرفض امرأة قوية جسديا بسبب قبحها.» (المصدر نفسه: ١٠١/١)

ونلاحظ فى قصة هنبوى أنَّها لا تتمتع بأىّ جانب جمالى نســـائى كما هو متوقع من امرأة لذا فإنَّنا لانجد أىّ وصف عن جمالها أو أنوثتها فى القصة وإن كانت بنية القصة لا تقتضى ذلك فى الأساس.

فهـــى امرأة تلعب دور الزوجـــة والأم والأخت فى آن واحد ولكـــنَّ دورها الأبرز على خلاف المجتمعات المعاصرة يتلخّص فى أنَّها أخت ويبدو أنَّها قلقة على فقد الأخ أكثر من ســـائر أعضاء أسرتها. ويبدو أنَّ نســـبة الحب تجاه الأقارب كانت تتفاوت فى المجتمعات البدائية من عصرنا الحاضر كما أنَّها كانت متفاوتة فى نســـبة القرابة نفســـها

وكانت خاضعة لمدى أهمية الأشخاص فى الأسرة. ففى المجتمع ذى النظام الأمومى «لم تكن المرأة تابعة لزوجها بل كانت تابعة للأب أو الأخ فى قبيلتها هى وكانت تعيش معهم وكان الذكـور الذين يعرفهم أبناؤها هم والد المـرأة وإخوتها. كما أنَّ العلاقات القائمة علـى المحبة كانت موجودة بين الإخوة والأخوات بشـكل أقوى من العلاقات الزوجية ومـن جانب آخر كان الزوج يعيـش مع أمه داخل قبيلته وكان يزرو زوجته خلسـة. فحتى فى العصور المتأخرة ذات المدنيات المتطورة نسـبيا نلاحظ أنَّ أهمية الأخ كانت عنـد المرأة أكبر مـن أهمية الزوج. إنَّ الفكرة القائلة بأنَّ الزوج هو أقرب الأشـخاص من زوجته وأعزهم لديها فكرة جديدة يوجد لها مصداق خارجى عند قليل من البشـر فقط.» (المصدر نفسـه: ٤٠/١) ويبدو أنَّنا نسـتطيع فهم الأسـباب التى كانت تدفع إلى تفضيـل الأخ على الـزوج بمعرفة نظام المجتمع الأمومى سـواء من الجانب المنطقى أو مـن الناحية العاطفية إذ إنَّ الزوج لم يكن ذا أهمية كبيرة فى المجتمعات البدائية وكان الدور الأساس فيها على عاتق الأخ ويبدو أنَّ الإنسان البدائى لم يكن يفكر فى الحبّ عنـد الزواج ولم يكن للـزواج أىّ صبغة عاطفية وكان هذا الجانب العاطفى يتجلى بين الإخـوة والأخوات حيث نجد بعض ملامحها فى الأسـاطير والنصـوص الأدبية التى وصلتنا فعلى سـبيل المثال نلاحظ أنَّ "آنتيغون" تضحى بحياتها من أجل أخيها كما أنَّ مؤلـف مرزبان‌نامه يتحدث عن علاقة الأخوة ويصفها «بأنَّها لا يمكن أن يجد الإنسـان عنها بديلاً ببذل الغالى والنفيس.» (وراوينى، ٢٠٠٦م: ٥٠)

إنَّنـا نواجه فى قضية عـدم تفضيل الابن على غيره تحدياً كبيراً ولا يمكننا فى نهاية المطـاف الوصول إلى نتيجة قاطعة فهناك أمارات تدل على أنَّ الأولاد لم يكونوا على درجـة كبيرة من الأهميـة العاطفية التى يحظـون بها اليوم. ويمكننا أن نسـتخرج هذه الأمـارات عبر معرفة حقيقة "الـزواج الجمالى أو الاشـتراكى" والعلاقات الطوطمية الموجودة فى المؤسسات ذات النظام الأمومى.

«إنَّ المراد من العرس الجماعى أو الزواج الجماعى هو أنَّ مجموعة من الرجال كانوا يتزوجون مع مجموعة متسـاوية من حيث العدد من النسـاء زواجاً مشتركاً فعلى سبيل المثال كان عشـرون رجلاً يتزوجون مع عشرين امرأة وبذلك كان كل واحد من هؤلاء

الرجال زوجاً لجميع هؤلاء النسوة كما كانت كل واحدة من هؤلاء النساء زوجة لجميع هـؤلاء الرجـال و كان جميع الرجال آباء لجميع الأولاد كما كان جميع النسـاء أمهات لجميع الأولاد أيضا.» (رضى، ١٩٦٥م: ٢٣٠/٤) «ففى المجتمعات الطوطمية كان مفهوم القرابـة يجـد معنى جماعياً. فكل فرد لا ينادى من كان سـبب وجوده فى هذا العالم أبا فحسـب بل كان يدعو جميع رجال القبيلة الذين كان يحق لهم الزواج بأمّه أبا كما كان يدعو أمّا جميع النسـاء اللاتى كان بإمكانهن أن يكنّ أما له. لذا فإنَّ عنوان القرابة كان لا ينطبق على القرابة الناتجة من الدم كما هو الحال عندنا اليوم. فتلك العناوين كانت تدل فى الغالب على العلاقات الاجتماعية أكثر من دلالتها على العلاقات الجسـدية.» (فرويد، ١٩٧٣م: ١٣)

والسـؤال هنا هل إنَّ مفهوم الأمومة والبنوّة فى حكاية هنبوى يضرب بجذوره فى مفهوم القرابة "الاشـتراكية" أوالقرابة الطوطميـة؟ «إنَّ التعلق بالطوطم ... يتجاوز من ناحيـة مفهوم التعلق بالقبيلة ومن ناحية أخرى يقلّل من أهمية عنصر الدم فى القرابة.» (المصدر نفسه: ٧)

«إنَّ العلاقات الطوطمية أقوى من العلاقات الأسـرية فهذه العلاقات لا تنطبق على بعضهـا بعض كما نتصور.» (المصدر نفسـه: ١٤٤-١٤٣) فهـل يمكن بناء على ذلك أن نسـتنبط أنَّ مفهوم الأمومة والبنوّة كان يختلف عما هو عليه اليوم. أو كانت هذه العلاقة أضعف مما هى عليه اليوم؟ يعتقد فرويد أنَّ المراعاة الشـديدة للمقدسـات كانت تدفع أفراد أسـرة الطوطم المشترک إلى الابتعاد عن بعضهم البعض مما كان يؤدّى إلى ضعف العلاقات بينهم.

فقـد ذكر فرويـد أمثلة عديدة تدل على الخوف المبالغ فيه من هذه العلاقة بين أفراد معتقدين بطوطم مشـترک ويبين أنَّ هؤلاء كانوا يراعـون قوانين صارمة فى علاقاتهم فمنهـا منع الحديث ومنع النظر ومنع الحياة المشـتركة و ... يقول فرويد: «فى مثل هذه الأسـر لا يتناول الأفراد الطعام فى مكان واحد فالبدو يأكلون منفردين حتى اليوم إنَّ الموانع المذهبية الطوطمية حول الأطعمة تمنعهم فى الغالب من مؤاكلة أبنائهم.» (الطوطم والطابو، لاتا: ١٨٦) أليس عدم الارتباط هذا الذى سبق ذكره بسبب مراعاة المقدسات

بين الوالد و أبنائه يؤدّى إلى ألّا يوجد هذا الحب الذى نعرفه اليوم بينهم؟

لا يمكننا البت فى رأى معين فى هذا الصدد فوجود غريزة الأمومة القوية فى الحيوانات يمنعنا من البت فى أمر ضعف عاطفة الأمومة فى العصور البدائية لدى المرأة. غير أنَّنا نستطيع القول بأنَّ عدم قبول تحليل كهذا ربّما يدفعنا إلى أن نميل إلى قضية أخرى وهى الإيمان بالمبادئ والمثل العليا. فالإيمان بالهدف أو المبدأ يسهّل على الإنسان التضحية بكل شئ فالتاريخ البشرى يشهد أنَّ هناك أمهات ضحيّن بأبنائهن فى سبيل هدف مهم أو عقيدة مقدسة لربّما ليس الأخ هو أحب الأشخاص غير أنَّه أهم الأشخاص فى مثل هذا النظام ففى بنية المجتمعات البدائية الطوطمية كان الأهم هو الأكثر تقدساً فالحفاظ على أكثر الأشياء تقدسا يعنى أكثر الأشياء أهمية. فمن خلال كلام هنبوى يمكن الوصول إلى هذا المفهوم بالكناية فهى تقول: لو كان عندى أخ فسيكون عندى الزوج والابن أيضاً فمعنى ذلک أنَّ الأخ هو كل شئ ووجوده يعنى وجود الجميع.

هنبوى واختبار البطولة

ليست قصة هنبوى مأساة فالقدر وضعها أمام مفترق طرق ولكنَّها ليست خاسرة فى جميع الحالات فهى لا تتردد فى الاختيار بين السيئ والأسوأ حتى تضطر إلى اختيار الأسوا وتدفع الثمن بل على العكس من ذلک تختار اختياراً صحيحاً وفى النهاية تأخذ جزاءها على حسن الاختيار هذا لتنتهى القصة نهاية سعيدة.

ففى الأساطير نجد البطل يضطر إلى اجتياز العقبات الصعبة مثل العقبات السبع لرستم واجتياز عالم الظلام أو الدخول فى طريق اللاعودة و ... فهى جميعاً اختبار للشجاعة والبطولة غير أنَّ هناک نوعاً آخر من الاختبار هو اختبار الذكاء والتدبير أو اختبار العلم المذهبى. فالبطل يجب أن يخضع للاختبار النفسى أيضا. فالموابذة قاموا باختبار زال بحل اللغز كما قام الوزير بالمناظرة مع ابن الملک فى كتاب "مرزبان‌نامه". فهناک أبطال خضعوا للاختبار الجسدى والنفسى معاً. تعدّ هنبوى بطلة هذه القصة فهى خضعت لاختبار التدبير أو العلم المذهبى ولكنَّها خرجت مرفوعة الرأس من هذا الاختبار الصعب لتنال جزاءها فى النهاية فيهبها الضحاک أخاها وابنها وزوجها جميعا فحكاية هنبوى هى أسطورة اختبار للبطولة.

هنبوى تاريخياً

لم ترد قصة هنبوى فى كتاب مرزبان‌نامه كأسطورة وإنَّما وردت فى كتابين تاريخيين آخرين كواقع تاريخى وهما كتاب تاريخ جهانگشاى جوينى «الذى أوردها كحادثة حدثت فى عهد أوكتاى قاآن المغولى كما وردت فى تاريخ هيرودوت كحادثة حدثت فى عهد داريوش الأخمينى. لقد ورد فى تاريخ جهانگشا أنَّ ثلاثة أشخاص أحضروا لكى يعاقبوا على جريمة ارتكبوها فأمر أوكتاى قاآن بقتلهم فعندما أتى من القصر وجد امرأة تصب التراب على رأسها وتصرخ فسأل ما خطبها؟ فقالت أبكى على هؤلاء الثلاثة الذين صدر الأمر بقتلهم فأحدهم أخى والآخر زوجى والثالث ابنى. فقال لها اختارى واحداً من هؤلاء الثلاثة كى أطلق سراحه لأجل قلبك قالت: الزوج يمكن أن أجد عنه بديلاً وكذلك الابن فهو مرجوّ ولكنَّ الأخ لا أجد له بديلاً فأمر بأن يهبوها الثلاثة.» (جوينى، ٢٠٠٧م: ١٨٣/١)

غير أنَّ هيرودت يذكر هذه القصة وينسبها إلى إصدار داريوش الأمر بقتل "اينتامزن" وجميع أقاربه ويقول: «إنَّ واحداً من السبعة الذين ثاروا ضد مغ كان يدعى اينتامزن فقتل بعد ارتكاب جريمة مباشرة. دخل يوماً فى قصر الملك وأراد مقابلته وقد كان هذا المبدأ معترفاً به وهو أنَّ من أطاح بمغ يجوز له الذهاب إلى الملك دون إذن مسبق شريطة ألّا يكون الملك مع النساء. لذلك فإنَّ اينتامزن كان يستخف بالاستئذان المسبق وأراد مقابلة الملك كواحد من السبعة فمنعه البواب والمناوب الموجودان على بوابة القصر وقالا له إنَّ الملك مشغول مع النساء غير أنَّ اينتامزن ظنّهما كاذبين فاستل سيفه وقطع أنفيهما وآذانهما وسلك هذه الأعضاء المقطوعة فى لجام حصانه وعلّقه على رقبتيهما وأرسلهما إلى الملك. فذهبا إلى الملك ووضّحا له القصة التى جرت لهما مع اينتامزن فخاف داريوش من عمله ظانّا بأنَّه قام بذلك بتنسيق مسبق مع أولئك الستة فأحضرهم وسألهم عن الأمر هل يؤيّدونه أم لا فتأكّد له أنّهم لم يكونوا على علم بذلك فأمر بأن يسجن إينتامزن وأولادة وأقاربه جميعا. إذ كان يظن حسب القرائن بأنَّه يفكر فى ثورة ضده فسجن الجميع على أن يأمر الملك بقتلهم غير أنَّ زوجة اينتامزن كانت تتردد على القصر بشكل مستمر وتبكى بشدة مما جعل قلب داريوش يرق على حالها

فأرسل إليها أنَّ داريوش شاه يسمح لک باختيار أحد هؤلاء المساجين ويهبک حياته فأجابت المرأة بعد تفكير: إذا كان الملک يسمح باختيار شخص واحد فقط من بين جميع الأقارب فإنَّنى أختار أخى فعندما اطلع داريوش على هذا الأمر تعجب فأرسل إليها أيتها المرأة يسألک الملک ما الذى جعلک تتخلين عن زوجک وهو أعزّ الناس عندک وعن أبنائک وهم أقرب الناس منک وفضلت أخاک عليهم فأجابت: أيّها الملک لاشکّ فى أنَّنى لو خسرت زوجى وأولادى أستطيع أن أتزوج بعدهم بإذن الله ليكون عندى زوج وأولاد آخرون ولكنَّ والدىّ قد توفيا فلا يمكن أن يكون لى أخ بعد هذا الأخ فهذا التدبير جعلنى أعرض هذا الطلب إليک.» (هيرودت، ١٩٦١م: ٢١٣-٢١٢)

إنَّ صحة القصة الواردة فى كتاب تاريخ جهانگشاى جوينى الذى ألفّ بعد خمسين عاماً من تأليف كتاب مرزبان‌نامه أمر مشكوک فيه خاصة مع وجود قصة مماثلة لها فى تاريخ هيرودوت غير أنَّ صحة قصة هيرودوت تحتاج إلى التمحيص فى التاريخ.

ولكننا إذا اعتمدنا على أصل هذه القصة التاريخية وربطنا أصول قصة هنبوى إلى العصر الأخمينى فإنَّ ذلک لا يعنى أنَّ النظام الأمومى كان سائداً فى ذلک العصر وإنَّما يدل على أنَّ حب الأخ الضارب بجذوره فى الحياة البدائية للبشر كان ما يزال محفوراً فى ذاكرة الإنسان فى ذلک العصر وكان كقيمة ثقافية أو كعادة اجتماعية مازال مترسخاً فى الأذهان. وقد أشرنا فيما مضى إلى كلام ويل دورانت حيث قال: إنَّ المرأة كانت تكرم أخاها أكثر من زوجها حتى فى المدنيات المتطورة القديمة.

إنَّ تغيير أسلوب الحياة طوال التاريخ يترک بعض الأساليب القديمة تعمل كقيمة أخلاقية أو مخالفة للأخلاق والثقافة غير أنَّ أسبابها تظل مبهمة غامضة عند الناس. وهى تتجلى فى سلوک الناس كطقوس أو تقاليد أو تنعكس فى القصص وتنتقل بين الناس.

ولكنَّنا إذا رفضنا هذه الحادثة تاريخياً كما رفضها أمثال زرينكوب وپيرنيا فإنَّ ذلک سيدفعنا إلى الاعتقاد بأنَّ قصة هنبوى تعود إلى عصور تاريخية مبهمة إذ تحولت إلى حكاية رمزية انتقلت إلينا عبر الصدور وظهرت فى كتب مختلفة فى عهود متفاوتة فهى تتمثل فى قصة هنبوى فى عهد الضحاک ومرة أخرى نراها تظهر فى قصة اينتامزن فى العهد الأخمينى ومرة ثالثة نراها فى شخصية امرأة مجهولة فى عهد الحكم المغولى.

إنَّ شخصية الضحاک فی قصة هنبوی لیست منسجمة مع الصورة المرسومة عنه فی ذهن القارئ. إنَّ حاکماً یصبح عادلاً بسبب سماع صوت بکاء امرأة ویهبها الثلاثة لا یمکن أن یکون الضحاک المعروف لکنَّه ملک من أولئک الملوک الکثیرین فی التاریخ الذین یلقبون بمالکی الرقاب فهم یصدرون الأمر بالقتل ولکنَّ سماع جملة حکمیة رائعة یدفعهم إلی العفو عن الشخص إنَّ مثل هذا الملک نراه فی الکتب الأخری من مثل کلستان لسعدی الشیرازی إنَّ سبب تسمیة هذا الملک بالضحاک فی هذه القصة محاولة لتبریر إصدار الأمر بقتل ثلاثة أشخاص من أقارب هنبوی إذ إنَّ مثل هذا السلوک یناسب الملوک التاریخیین المعروفین أکثر مما یناسب الملوک الأسطوریین مثل الضحاک.

إنَّ ملکاً ینتسب إلی أسرة خاضعة لنظام سلطة الأب یتعجب من اختیار امرأة تنتمی إلی النظام الأمومی وتهب لها ابنها وزوجها. وبالنظر إلی وجود نظام الانتساب إلی الأب عند الآریین فإنَّ من الممکن القول إنَّ قصة هنبوی تنتمی جغرافیا إلی تلک البلاد الخاضعة لسیطرة الإیرانیین أو تلک المجاورة لبلاد فارس. إنَّ قصة هنبوی تعتبر الحد الفاصل بین الواقع والأسطورة إنَّها عقدة ظهرت بسبب وجود فهمین مختلفین عن فکرة واحدة وذلک بسبب وجود نوعین من الحیاة بین الملک والعبید. إنَّها قصة تعکس مسار تطور الإنسان من النظام الأمومی إلی نظام الانتساب إلی الأب وهی انعکاس للتحدی الکبیر الناجم عن التفاوت بین مستویات القرابة الأسریة فی نظامین اجتماعیین مختلفین.

النتیجة

نواجه فی هذه الحکایة امرأة تعتبر بطلة فیها وقعت فی ورطة ستخسر فیها ابنها وزوجها وأخاها إنَّ هؤلاء الثلاثة جمیعاً رجال وعلی المرأة أن تختار واحداً منهم فهی تختار أخاها فی نهایة المطاف وبهذا الاختیار تتمکن من إنقاذ الثلاثة.

إنَّ هذه الحکایة ضاربة بجذورها فی النظام الأمومی ففی هذا النظام یعدّ الأخ أهمّ أفراد الأسرة إنَّ کل نوع من الحب والإیثار فی هذا النظام راجع إلی مدی أهمیة الفرد فی ذلک النظام. تضحی المرأة بزوجها إذ إنَّ مفهوم الحب لم یکن رائجاً فی المجتمعات

البدائيــة القديمــة وليس للرجل دور كبــير فى نظام الزواج خارج الأســرة. ثمّ تضحّى المــرأة بابنها إذ يبــدو أنَّ عاطفة الأمومة كانت أضعف مــن العلاقة بين الأخ والأخت فى المجتمعات البدائية ولربما كان على كل فرد أن يضحى بالغالى والنفيس فى ســبيل الحفــاظ على الأهم. ففى مثل هذه الحالة فإنَّ التضحية بالولد للحفاظ على حياة الأخ تعادل اليوم مفاهيم من مثل الإيثار والاستشــهاد وحفــظ الوطن وحفظ الدين وحفظ الحرية وهى تكمن فى الصراع بين نظامين اجتماعيين مختلفين هما النظام الأمومى "نظام العبيــد" مقابل النظام الأبوى "نظام الملك" ويبدو أنَّ كاتب الحكاية وقع فى المشــكلة نفسها بسبب فكرته المبنية على النظام الأبوى. إنَّ وصف تدفق الأحاسيس والعواطف عند هنبوى تجاه زوجها وابنها يعود إلى مقدرة الأديب مما يعزز جانب التأثير فى النص ويوخــر الوصول إلى نقطة الذروة والعقدة فى القصة. إنَّ هذه الأوصاف نتاج قلم أديب يعيش فى مجتمع متحضر وإنَّ فهمه عبارة عن فهم متطور غير بدائى لذا فإنَّه لا يستطيع القبول باللامبالاة تجاه الزوج والأولاد. إنَّ نظرتها على الأشــخاص الثلاثة فى السجن تعبر عن أحاسيســها بشــكل درامى مؤثر. وتصف حالة الحزن التــى تمرّ بها الأم تجاه ابنها حيث يقوم الكاتب بتصويرها بشــكل أقوى من بقية الحالات. غير أنَّه فى وصف أحاســيس المرأة تجاه زوجها يلجأ إلى صور أقلّ تأثيراً من أحاسيسها تجاه الابن. غير أنَّ ما يحدث تجاه الأخ يفاجئ المخاطب الذى يعرف نمطاً اجتماعياً مقبولاً فى أىّ مجتمع مدنــى و تتجلى صــورة الأخ فجأة وتبرز أكثر فأكثر إنَّ الوصــف الدقيق يتم فى نهاية القصة وإنَّ هذه الإثارة تزيد من جاذبية القصة. إنَّ البنية القصصية تدل على أنَّ هنبوى تسير فى اختيارها من مسار الحركة من الاحساس نحو العقل. وإنَّ عقدة القصة تكمن فى التضاد بين ماهية العواطف النسائية والعقل عند بطلة القصة. غير أنَّ نظرة منا على المضمون تجعلنا فى مواجهة قصة تضرب بجذورها فى مؤسسة اجتماعية قديمة تعود إلى الإنسان البدائى.

حيث أخذت فى مســار انتقالها الشــفهى من العهود البدائية إلــى العهود المتطورة تصطبغ بصبغة المدنية وإنَّ هذا الامتزاج بين الماضى والحاضر أضفى على القصة تعقيداً قصصياً ومنحها هذه الجاذبية. وقد تجلت هذه العقدة على شــكل الرمز فى قالب تقليد

أسطورى يدعى تقليد اختبار البطولة للبطلة التى تنتمى إلى النظام الأمومى. وخرجت البطلة المنتمية إلى النظام الأمومى مرفوعة الرأس لتنقذ بذلک جميع أقاربها مجيبة بذلک على السؤال المهم المتعلق باختبار التدبير والعلم المذهبى لديها فهى تعلم ما هو المهم و ماهى طريــق الخلاص وتعلم أنَّ الإجابة على ذلک هى أنَّ المهم هو اختيار الأخ وهو طريق خلاص الجميع.

المصادر والمراجع

جوينــى، محمد. (١٣٨٥ش). تاريخ جهانگشــاى جوينى. تصحيح: محمــد قزوينى. چ ١٤. تهران: دنياى كتاب.

دورانت، ويل. (١٣٩١ش). تاريخ تمدن. ترجمه :احمد آرام، ع.پاشايى، اميرحسين آريانپور. چ١٥. تهران: علمى و فرهنگى.

رضى، هاشم. (١٣٤٣ش). تاريخ اديان. چ١. تهران: كاوه.

فرويد، زيگموند. (١٣٥١ش). توتم و تابو. ترجمه محمد على خنجى. چ٢. تهران: كتابخانه طهورى.

فريــزر، جيمز جورج. (١٣٨٦ش). شــاخه زرين. ويرايش و مقدمــه رابرت فريزر. چ٣. ترجمه كاظم فيروزمند. تهران: آگاه.

مصاحب، غلامحسين. (١٣٨١ش). دايره المعارف فارسى. چ٣. تهران: اميركبير.

وراوينى، ســعد الدين. (١٣٨٤ش). مرزبان نامه. به كوشــش خليل خطيب رهبر. چ١١. تهران: صفى عليشاه.

هرودوت. (١٣٣٩ش). تاريخ هرودوت. ترجمه و حواشى هادى هدايتى. چ١. تهران: دانشگاه تهران.